

رمضان المبارك.. إليك أتحدث



ها هي السماء تبتسم عن هلاله.. وها هي الأرض تهش لإستقباله.. إنّه الشهر الكريم المبارك.. شهر الخيرات الربانية والنفحات الإلهية والفيوضات الرحمانية. أقبل° أيها الشهر الكريم، وأقم طويلاً في هذه الأُمَّة المسكينة، أقم فيها ما شئت، وعلمها أنّ الشهوات قيود الأسر، وانّ المطامع أساس الإستعباد، وأن أساس الحرّية الإستغناء، وأنّ الإرادة متى قويت، والعزيمة متى صحت، لا يقف في وجهها شيء، وأنّ غذاء الطين طين، بينما غذاء الروح روح. أقبل أيها الحبيب، فكم نحن في شوق إليك، تأتي كل عام فتغسل أدران قلوبنا، وتروي ظمأ نفوسنا، وترفرف بأرواحنا في مدارج السمو والتعالى على الشهوات والملذات، فنتشبه بالملائكة التي لا شهوة لها. تأتي كل عام فتتعطر المساجد بأنفاس الذاكرين الراكعين الساجدين الداعين المستغفرين والتوابين الأوابين، ويعود القرآن غصاً طرياً على الألسنة، وتسوخ الأيدي بالعطاء، والمآقي بالبكاء، وترفل المآذن والقباب في حلل من البهاء والجمال والأنوار. أوّله الرحمة تغمرنا *** ويطيب لأنفسنا المنهل أوسطه مغفرة كبرى *** من كل خطايانا زُغسل آخره عتق من نار *** لولاه كانت تنغلغل كم نحن في حاجة إليك، كم نحن في حاجة إلى أن نتعلم في مدرستك العظيمة، ونتحلق حول مائدة دروسك البليغة، كم نحن في حاجة إلى أن نلتحق بجامعة الكبرى التي تقدم دورة تدريبية مكثفة كل عام لا يلتحق بها إلا ذوو الهمة العالية والإرادة الواعية الذي يرغبون في أن يتاجروا مع الله تعالى تجارة لا تبور. لا أكتمك سراً - أيها الشهر المبارك - أنا - نحن المسلمين - قد

تفرقت بنا السبل، فضعت عزائنا وخارت قوانا، وصرنا - إلا من رحم الله - عباداً لشهواتنا، جل همنا وأكبر سعينا وغاية مرادنا إشباع الشهوات وإرضاء الملذات. قد تسألني متعجباً: ولم كل هذا؟ ألم تتعلموا مما قدمته لكم من دروس وعبر طوال أربعة عشر قرناً؟ ألم أقص عليكم قصص البطولة والفداء والتضحية والعطاء؟ ألم أرب فيكم العزائم، وأصنع منكم الرجال؟ وأجيبك حزيناً: بل قد أتيت وعلمت وربيت، ولكننا كثيراً ما ننسى، تأخذنا الحماسة في أولك، وتضعف الهمة في وسطك، ثم تخبو شعلة الحماس في آخرك، فينفرط منا العقد قبل أن ينعقد، وينقض منا البناء قبل أن يكتمل! - لكن.. ما زال الأمل يداعبنا: كلما أقيمت كل عام ينساب في قلوب المؤمنين نور، وتتجدد مشاعر، وتحيا آمال. كلما أقيمت - أيها الشهر الكريم - أقيمتنا على أول طريق العزة، وفتحت لنا أوّل صفحات المجد والفخار، وذكرتنا بمجدنا التليد وماضيها المجيد، واستعدنا قول هاشم الرفاعي: ملكنا هذه الدنيا قروناً *** وأخضعها جدود خالدونا واطرنا صحائف من ضياء *** فما نسي الزمان وما نسينا ما زال الأمل قوياً في التغلب على الشهوات والملذات، ومن ثمّ النصر على الأعداء، ما زال الأمل قوياً في مغالبة الأنفس، فذاك هو الطريق لمغالبة أهل الهوى والضلال والباطل (الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفِتْنَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا) (النور/ 19). ما زال الأمل يداعبنا - أيها الضيف العظيم - في أن نحسن محاسبة أنفسنا ومراقبة ربنا، والتأسي بنبينا المصطفى (ص)، الذي كان أكثر الناس طاعة لله سبحانه، ومع ذلك كان أكثر الناس خوفاً من الله، وأشد الناس حساباً لنفسه! ما زال الأمل يداعبنا، بأن نخرج منك، وقد ازددنا من الله قرباً، والله وداً، وعلى الآخرة إقبالاً، ومن الدنيا حذراً. - طاعة.. أربع وعشرون ساعة: إنّ فيك يا رمضان من خصال الخير ما لا يحصى، ومن فيوضات الله ما لا يُنكر، فالمسلم الحق يشمر فيك عن سواعد الجد، ويعلن الحرب على نفسه؛ لأنّه يعلم أنها أعدى أعدائه، وأنها لا بدّ أن تُحمل على طاعة الله حملاً، وأن تُساق إلى رحاب ربها سوقاً (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (الشمس/ 10-7)، (فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ الْعَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) (النازعات/ 41-37). ومن ثمّ فإن من يريد أن يظفر بالفوز والنجاة والرحمة والمغفرة والعتق من النيران في هذا الشهر الكريم، يضع لنفسه برنامجاً إيمانياً مكثفاً: فهو يبدأ يومه بطاعة، ويختتمه بطاعة، وما بين البدء والختمان يتقلب - أيضاً - في صور شتى من الطاعات، إنّه يبدأ يومه بالسجود، ناوياً الصيام مخلصاً النية لله رب العالمين، ثمّ يثني بصلاة الفجر، ثمّ يجلس يذكر ربه تعالى حتى تطلع الشمس،

فيكتب له أجر حجة وعمره تامة تامة تامة، كما أخبر الصادق المصدوق (ص)، ثم ينصرف إلى عمله، غاضاً بصره، ذاكراً ربه، تالياً كتابه، داعياً إلى سبيله، قدوة في سلوكه وقوله، إذا سابه امرؤ أو شاتمه لا يرد عليه، بل يقول كما علمه المصطفى (ص): "إني صائم، إني صائم"، وهو مع صيامه لا يتكاسل في عمله، بل يتقنه خيراً ما يكون الإتقان، ويؤديه أحسن ما يكون الأداء. ويخطئ من يظن أن الصيام تكأة أو حجة للتكاسل أو التواني أو الإساءة إلى الناس في معاملتهم، فرب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، ورب قائم ليس له من قيامه إلا التعب والسهر". ثم يعود إلى بيته - وقد صلى الظهر العصر - فيأخذ قسطاً من الراحة، ثم يصحوا قبل صلاة المغرب، فيعطر لسانه وقلبه بأذكار المساء، فإذا ما انطلق أذان المغرب أفطر على تمرات أو رطبات أو حسا حسوات من الماء، ثم توجه إلى بيت من بيوت الله، فأدى الصلاة، ثم يعود فيفطر إفتاراً لا يسرف فيه ولا يكثر؛ حتى لا يتثاقل جسمه عن أداء صلاتي العشاء والتراويح، إذ الهدف من الصيام قتل شهوتي الفم والفرج أو ترويضهما إلى أقصى درجة ممكنة، فإذا ما ملأت المسلم معدته في الإفطار، فما حقق للصيام هدفاً، ولا قتل في النفس شهوة. وبعد صلاتي العشاء والتراويح لا يضيع وقته الثمين في الملاهي أو المعاصي - حاشا أن يفعل المسلم ذلك بل عليه أن يستثمر هذا الوقت في زيارة أحد إخوانه أو السمر مع أولاده، أو تلاوة آيات من كتاب العزيز أو المطالعة المفيدة المثمرة أو في أي عمل نافع آخر، ولا يطيل في ذلك، إذ يحرص على النوم مبكراً للقيام لصلاة التهجد، فهذه صفة من صفات عباد الله المؤمنين حقاً، الذين قال الله تعالى عنهم: (كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مَا يَدْعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) (الذاريات/ 17-18)، وقال سبحانه عنهم في سورة السجدة: (تَدَجَّجَا فِي جُنُوبِهِمْ * عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (السجدة/ 16-17). وليسأل كل مسلم نفسه: إن لم أحي رمضان بالطاعة والصيام والتهجد والقيام.. مع كل ما فيه من منن عظيمة وعطايا جلييلة ومضاعفة للحسنات ومغفرة للسيئات وتصفيد للشياطين، وتفتيح لأبواب الجنان وتغليق لأبواب النيران، فمتى إذن سأفعل؟ وماذا أنتظر؟ - فرصة نادرة وغنيمة باردة: إن رمضان فرصة نادرة وغنيمة باردة، ومضمار للتنافس في فعل الخير، لا يغفل عنها إلا من رغب عن التجارة مع الله تعالى، الذي حثنا على أن نتاجر معه، وبين أن تلك التجارة أبداً لن تبور: (إِنَّ السَّادِّينَ يَتَّبِعُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْتَجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ) (فاطر/ 29)، (يَا أَيُّهَا السَّادِّينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ

* تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ لَكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *
يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِينٍ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *
وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشْرٌ
الْمُؤْمِنِينَ) (الصف/ 9-13). ولو تصورت أن تاجراً انصرف عن تجارته في مواسم الربح والرواج، أو أن زارعاً انشغل عن زراعته في مواسم الزرع والنماء، فماذا أنت عنهما قائل؟
وتصور أن موائد حافلة قد نُصبت، وتحلق حولها الراغبون، وفُرُشاً وثيرة قد بُسطت، وجلس عليها الجالسون، وبينما أنت تصرف بصرك هنا وهناك، إذا برجال يفترشون الثرى، ويتحلقون حول مائدة عليها بقايا طعام لا يسمن ولا يغني من جوع! فماذا أنت عنهم قائل؟ هل يعرض عن مواسم الخير والعطاء، ونفحات البر والسخاء، إلا من سفه نفسه وغرته الدنيا، وخذعه شيطانه؟ إن الحديث عن رمضان حديث ذو شجون، وهو متعدد الرؤى والزوايا، ويجب أن يكون ثرياً ثراء هذا الشهر العظيم، فهو غرة الأيام والشهور، وزينة الأعوام والدهور. -
أرأيت من نفسك خيراً؟ أخي: أعلم أن إصطفاك ومنّ عليك وأعطاك. ولو أراد بك شراءً - وحاشا وكلا - فهو القائل في كتابه الكريم: (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا) (النساء/ 147). أقول: لو أراد بك شراءً لما هداك للإيمان، ولما أفاض عليك - كما أفاض على عباده المؤمنين - بنعمة القرآن، ولما أمد في عمرك وأعطاك الفرصة تلو الفرصة، والمنحة وراء المنحة، فعليك أن تُربي من نفسك خيراً. تذكر أن إياها ملائكته بعباده الصالحين الذاكرين، وأنّه - جلّ وعلا - يفرح بتوبة التائبين، وأوبة الأوابين، وهو الذي لا تضره معصية ولا تنفعه طاعة، فهل تحب أن يفرح بك ربك جلّ وعلا ويباهي بك ملائكته؟ وتذكر أن إياها قد عقد معك - أيها المؤمن الحق - صفقة رابحة: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوَرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَدْيِعْكُمْ إِلَهِ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (التوبة/ 111). وما أصدق قول الصديق رضي الله عنه: في هذه الآية: "أنفس خلقها وأموال رزقها، ثم لما علم بخلنا اشتراها منا" سبحانه، بفيض كرمه وجوده وعطائه، ومع ذلك فنحن عن ذلك من المعرضين، وفيه من الزاهدين، إلا من رحم الله رب العالمين (والَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) (العنكبوت/ 69). ►

